الإهـــــــــداء

إلى والديَّ .... براً وإحساناً
إلى والديَّ .... براً وإحساناً
إلى والديَّ .... براً وإحساناً
إلى والديَّ .... براً وإحساناً
إلى والديَّ .... براً وإحساناً
إلى والديَّ .... براً وإحساناً

رفعـــــة

المقـــــــدمة

مقدمـــــة:

الحمد لله القائل في محكم تنزيله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ يوسف: ١١١، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي طلب منا في العديد من الآيات التأمل والتفكر في مخلوقات الله وبديع صنعه، والنظر في أحوال الأقوام السابقة، والسير في الأرض للاعتبار بأحوالهم، وما صارت إليه مآلاتهم، من مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ يوسف: ١٠٨ - ١٠٩، ومن مثل قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ﴾ يوسف: ١١٠ - ١١١، ولنتأمل خطاب الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ ﴾ يوسف: ١٠٩.

أما بعـــــد:

فالتاريخ عبارة عن دراسة أحوال بني الإنسان، وحركتهم على هذه الأرض، ورصد معاملاتهم المختلفة، ودفع بعضهم بعضاً، وما ينتج عن ذلك الدفع من نتائج وتطورات؛ ومن ثم فالتاريخ هو سجل العصور الغابرة[1]، ولعل من ثمار هذا العلم النافع وفوائده التدبر في أحوال الأمم والدول، وعوامل بنائها ونهوضها، وأسباب سقوطها وزوالها، والنظر في سنن الله في الآفاق، وفي الأنفس والمجتمعات على اختلافها، وتأمُّل مواقف الأقوام

[1] هرنشو : علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م، ص٢٣.

والشعوب المختلفة، ومعرفة الآجال وحلولها وانقضاء العدد، وأوقات التأليف، ووفاة الشيوخ، ومواليدهم، والرواة عنهم، فتعرف بذلك كذب الكذابين وصدق الصادقين[1].

ولا شك في أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، حيث إن العقيدة هي التي أنشأت هذه الدولة الإسلامية مترامية الأطراف من إسبانيا وحدود فرنسا غربًا إلى إندونيسيا وكيب تاون في أقصى الشرق من الكرة الأرضية، وعبر مدائن الإسلام والمسلمين الزاهية بحضارتها في قرطبة وبغداد ودمشق وتبريز وأصفهان والقاهرة.. وغيرها كثير.

ومن أجل هذا؛ فإنه لابد من دراسة التاريخ الإسلامي وفق منهج علمي صحيح، ومن هنا تظهر أهمية ما اصطلح على تسميته بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدوينه، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج، وأهدافه ووسائل تحقيقه، والالتزام به، وذلك كي لا تنحرف الدراسات التاريخية عن الصواب، فنأتيَ بآراءَ وتفسيراتٍ مضادةً للتصور الإسلامي عن الكون والحياة وسير الأحداث، وحتى لا نأتي بتفسيرات للتاريخ تضرب في صميم ثوابت هذه الأمة، وتهز الثقة في صدور الأجيال الناشئة ؛ ومن ثم فمن خصائص التاريخ الإسلامى طريقة إسناد الروايات إلى اصحابها عبر الأجيال المتلاحقة، وهو ما اصطلح على تسميته " الجرح والتعديل" عند المحدثين[2].

لقد كثرت الانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي، واتُّبِعت في كتابته وتدريسه مناهجُ وأفكارٌ ومبادئٌ غريبةٌ عليه، ومنشأ هذه الانحرافات قد يكون راجعاً إلى:

١-الانحراف الفكري في التصور عند أولئك الذين تولَوْا كتابة التاريخ، وفي صدورهم ميلٌ وهوى لمذهب أو لفرقة أو لكيان أو لحاكم.

---

[1] السيوطى : الشماريخ فى علم التاريخ، تحقيق أنور زناتى، محمد سالم صقر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٠٠.

[2] محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٦٠.

٢- الشعور بالروح الانهزامية، وفقدان الثقة أمام الحضارة الغربية التي ما كان لها أن تنهض إلا على إبداعات الحضارة العربية الإسلامية.

٣- التقصير في التوثيق العلمي ونقد الروايات.

٤- ضعف الاعتزاز بالروح الوثَّابة التي حملت مشاعل الفتوح الإسلامية في كافة أصقاع الأرض، وخضوع الكثير من المؤرخين لحاكم بعينه في مقاطعة بعينها، ثم اجتزازها من جسد الإمبراطورية المترامية الأطراف.

٥- فشل كل المحاولات التي سعت إلى كتابة التاريخ الإسلامي من خلال فرق عمل متخصصة لتوحيد المواقف والتفسيرات، والابتعاد عن الأهواء، من مثل مشروع دائرة المعارف التاريخية العربية، ومشروع إعادة كتابة تاريخ العرب والمسلمين[١].

وهناك محاولات عديدة لإعادة كتابة تاريخنا العربي والإسلامي، ولكنها ظلت كونها محاولات لم تر النور، رُغم أهمية هذه المحاولات فيما يتعلق بضرورة تنقية تاريخنا مما شابه من دسٍّ، ووقيعة، وافتراءات، وروايات مكذوبة. والمطَّلِعُ على مصادرنا التاريخية يشعر بضخامة الانحراف والخطأ الذي وقع فيه كثير من المؤرخين، قَدامَى ومُحْدَثين؛ فالقدامى جمعوا الأخبار صحيحَها وسقيمَها، ودونوها في كتبهم، ومنهم ذوو ميولٍ وأهواء، فاستطاعوا – عن وعي أو عن دون إدراك – توجيه الأحداث حسب أهوائهم، ومنهم عدول ثقات، ولكنهم يجمعون ويدونون كما أشار الذهبي على لسان أحدهم: (إذا كتبت فقمِّش وإذا حدَّثت ففتِّش[٢])، و سنعود إلي قضية التقميش والتفتيش لاحقاً بمشيئة الله تعالى.

أما فيما يختص بالباحثين المحدثين؛ فقد قام بعضهم – وهو كثير – بعرض المادة التاريخية كما وردت بنصوص المصادر، وصار الأمر مجرد حفاظ على سلامة النقل وحسب، دون تمحيص أو تفحيص، وصبغ البحث نفسه بنفس اللغة المستخدمة في المصادر.

---

[١] أنظر: مجلة المجتمع الكويتية، عدد ٢٣٢، محرم ١٣٩٥هـ.

[٢] محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وبشار عواد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١١/٨٥.

وصار – لزاماً – والحالة هذه – القيام بدورين رئيسين:

الأول: تحقيق الروايات التاريخية حسب القواعد النقدية الصارمة التي اتبعها علماء الحديث الشريف مع بعض الاستثناءات التي سترد في موضعها من هذا المبحث.

الثاني: صياغة التاريخ الإسلامي وفق التصور الإسلامي الصحيح، ووفق أسس ومناهج صحيحة منطلقة من فهم دقيق لدور المؤرخ والباحث، والمنحصر في عدم التحول إلى بَوْقِ دعاية تمجِّد وتنحاز بشكل انفعالي، والعكس صحيح[1].

ومن أجل المساهمة في تحقيق هذين الدورين المشار إليهما، وبغية وضع صياغة صحيحة عن تاريخنا الإسلامي ومواقف رجاله؛ تجدر الإشارة إلى عدة أمور:

١- يتخذ بعض المثقفين موقفاً سياسياً سلبياً من فكرة الخلافة، كون معاوية بن أبي سفيان – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قد اغتصبها، وحوّلها إلى مُلْكٍ عضود، وكأننا ملزمون بتبني نفس الموقف السلبي من نظرية الخلافة، وكأننا ملزمون بأخذ موقف سلبي من كل خلفاء الأمويين والعباسيين لمجرد أن فريقاً قد أخذ هذا الموقف.

٢- نسي هؤلاء وأولئك – أو تناسوا. أن التركة التاريخية والحضارية التي خلّفها لنا الأجداد ثرية وغنية، وعلينا بحثها وتحقيقها وتصويب أخطائها، ونهل الدروس المستفادة منها، ولا يكون ذلك إلا بإعادة تناول تاريخنا العربي والإسلامي بحثاً وتنقيحاً.

٣- يجب إعادة الاعتبار إلى كل الرموز الإسلامية التي أساء لها بعض مؤرخينا القدامى عن قصد أو دون قصد، فقد طال الخليفةَ الناصر لدين الله العباسي ما قد طال هارون

---

[1] قام ثلة من مؤرخى الإسلام وفقهائه عبر العصور بهذه المحاولة ومنهم على سبيل المثال ابن حزم فى كتابه الشهير الفصل فى الملل والأهواء والنحل، وابن العربى المالكى فى كتابه الماتع العواصم من القواصم، وابن تيمية فى كتابه الفريد درء تعارض العقل والنقل، وابن خلدون فى مقدمته الشهيرة، والسخاوى فى كتابه النفيس الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، وغيرهم كثير، ومن المحدثين الذين اهتموا بالدفاع عن التاريخ الإسلامى : محمود شاكر فى موسوعته الشهيرة عن العالم الإسلامى، ويحيي هاشم حسن فرغل فى كتابه دفاع عن التاريخ الإسلامى، ومحمد رشاد فى كتابه المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره، وعفت الشرقاوى فى كتابه : " فى التفسير الإسلامى للتأريخ"، وعبدالحليم عويس فى كتابه : " تفسير التاريخ علم إسلامى " .

الرشيد مع اختلاف الفِرْيَة، وكما نجح بعض الباحثين المخلصين في إعادة الاعتبار لشخصية الرشيد؛ فقد نجحْتُ بحمد الله في رد الاعتبار لشخصية الناصر لدين الله.

وها أنا أسعى لإخراج هذا الكتاب إلى النور، ووضعه بين أيدي القراء، مدركة سلفًا أن صداه قد يتراوح ما بين مؤيد ومعارض، ولولا كتاب يثير الجدل والنقاش، ما راجت بضاعة الوراقين وحاملي القراطيس، ولا تقدمنا خطوة للأمام على طريق العلم والمعرفة. فهذا هو مبلغي من العلم، إن أصبت فبتوفيق من الله – عز وجل–، وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وحسبي محاولة الاجتهاد.